



بقلم: عبد الكريم بودراع

رياديو الأعمال في الجزائر؛

إنجيليون أم ثوار؟

مؤسسة
الفكر
والعمل
حول
المشاريع
الخاصة
(CARE) -
الجزائر

عندما شرعت في كتابة هذا المقال، استدعيت إلى الذاكرة كتابات جي كاوازاكي، مؤسس مشروعات تكنولوجيا الجراج، التي كان يُشبه فيها رياديو الأعمال بالإنجيليين والثوار، ومن حسن حظي أنني ألتقي بالصفين في الجزائر كل يوم. نعم، وإني لأجزم -وعلى خلاف الأحكام المسبقة- بأن هناك الكثير من رياديو الأعمال في الميادين الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر، وسأثبت لكم ذلك في السطور التالية...

منطقي في ذلك هو أن تاريخهم القديم والحديث وإنجازهم يشي بأن رياديو الأعمال الجزائريين يحملون في جيناتهم صفات ريادية الأعمال. رياديو الأعمال هؤلاء تجدهم في القطاع الاقتصادي كما تجدهم في الميدان الاجتماعي أيضاً.

الدليل؟.. في ظل اقتصاد ريعي ومنغلق، ينجح العديد من الأفراد، من الترابندية (الترابندي في الجزائر هو التاجر غير الرسمي) إلى أرباب المشروعات الكبيرة، في تصريف أمورهم داخل نظام مثبط لأكثر المجازفين جرأة. لن نجد هنا بالطبع مديرين جيدين، ولكننا لن نعدم بالتأكيد رياديو أعمال.

ولكن البيئة العدائية بشدة، والمحافظة، والعقد النفسية تجاه الثراء والنجاح، لا تسمح كثيراً ببروز هؤلاء "الناجين" و"قصص النجاح".

وبما أننا متخصصون في الحفريات، فلنسع إذن لتتبع آثارهم حتى نفهم تطورهم بشكل أكبر.

في البدء كانت روح ريادية الأعمال

أصحاب رؤية وجسارة، هاتان هما الصفتان اللتان ميزتا الأبطال الستة الذين أعلنوا الثورة

الجزائرية سنة 1954، فقد تخلوا، و ضد رغبة الجميع، مستقبلاً آخر للجزائر، وامتطوا صهوة الجسارة، والنتائج نعرفها جميعاً.

يروى أوائل المديرين في الجزائر المستقلة تجربتهم الصناعية كما لو كانت امتداداً لتلك الثورة. وقد جرى الحديث كثيراً عن "الثورة الصناعية" و"الثورة الزراعية"... رياديو الأعمال الثوريون هؤلاء يروون تجاربهم في صورة ملحمة. وما زالت عالقة بذاكرتي تلك الشهادات التي رووها بحماس بالغ حول استطاعتهم الحفاظ على نشاط الإذاعة والتلفزيون الجزائريين، والمستشفيات، والمصانع، والجامعة، إلخ. ولنتذكر هنا أن الوضع عشية الاستقلال كان كارثياً، ولم يكن هناك من سبيل لتخطي العقبات سوى جرأة الثوار. فقد كان عليهم أن يُلوا رجالهم في كل

جنبات النظام الاقتصادي والجهاز الإداري محل المستعمرين الذين غادروا البلاد بأعداد غفيرة، وأن يفعلوا ذلك في وقت قياسي.

إلى روح ريادية الأعمال تلك يرجع الفضل في العديد من الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية في القطاعين العام والخاص في الجزائر المستقلة.

من الاقتصاد الريعي إلى اقتصاد السوق

على أن روح ريادية الأعمال لم تعبر عن نفسها بشكل أفضل مما عبرت به في تسعينيات القرن الماضي، مع هبوب رياح الإصلاح، فقد تزايدت أعداد من يؤمنون بأن الحلم قابل للتحقيق، وبدأنا نشهد تحولات سريعة. كانت تلك بداية عصر الإنجيليين الذين أتاحوا لنا، في وقت قياسي، أن نتذوق طعم المنتجات والخدمات ذات المستوى العالمي.

تاريخ رياديو الأعمال
الجزائريين،
القديم والحديث
وإنجازهم، يشي
بأنهم يحملون في
جيناتهم صفات
ريادية الأعمال...
ورياديو الأعمال
هؤلاء تجدهم في
القطاع الاقتصادي
كما تجدهم
في الميدان
الاجتماعي أيضاً.

فقد تزايد عدد المشروعات الاقتصادية والاجتماعية في فترة قياسية؛ حيث تنبه ريادة الأعمال، وبسرعة فائقة، إلى الفرص المتاحة، ووعوا ضرورة استبدال سمات الاقتصاد الريعي بعناصر النجاح في اقتصاد السوق. كانت تلك القفزة في ريادة الأعمال وراء قصص النجاح في مختلف ميادين النشاط، من صناعات غذائية -زراعية، ونشر، وصحافة، وإتترنت، وزراعة، وتأمين، وتعهد أطعمة...

لقد شهد الجزائريون الدليل على أن الطاقات المحررة مع انفتاح الاقتصاد، قادرة على تحقيق المعجزات.

وبفضل هذا الانفتاح تطورت ريادة الأعمال الاجتماعية أيضاً؛ حيث ولدت الغالبية العظمى من المشروعات الاجتماعية في تلك الفترة. كذلك شهدنا تجديدات وتطويرات كبرى في الإدارة العامة: البنك المركزي، والبنوك العامة، والتلفزيون الوطني، وشركات النقل...

ولكن لسوء الحظ، توقفت تلك الانطلاقة بمجيء العقد الأسود الذي أطاح بالكثير من المنجزات؛ ثم تزامن الخروج من تلك الأزمة مع الأزميتين المالية والاقتصادية العالميتين اللتين فرضتا العودة إلى مركزية الدولة.

بعض النتائج

برغم القيود المتعددة، وضعف مساحة التعبير المتاحة لقوى ريادة الأعمال، فقد جاءت النتائج متحدثة عن نفسها، ولنذكر بعض الأمثلة.

تزايد عدد المشروعات: تم إحصاء 455989 مشروعاً صغيراً ومتوسطاً (منها 591 مشروعاً حكومياً فقط) في نهاية 2009، من إجمالي 1.4 مليون مشروعاً مسجلاً في السجل التجاري. المشروعات متناهية الصغر الخاصة (التي تشغل أقل من 10 أفراد) تمثل ما يقرب من 96% من إجمالي المشروعات والمتوسطة والصغيرة.

القطاع الخاص أكبر مشغل: يعمل شخصان من بين كل ثلاثة في القطاع الخاص، بإجمالي 6.23 مليون شخص (دون إحصاء القطاع غير الرسمي).

القطاع الخاص ينتج الحجم الرئيسي من القيمة المضافة: يبلغ نصيب القطاع الخاص، الذي يعتمد أساساً على المشروعات الصغيرة والمتوسطة من الناتج الإجمالي المحلي في الجزائر أكثر من 52% منذ 2008.

نسبة المشروعات الصغيرة والمتوسطة (1.2 مشروعاً لكل 100 نسمة) تظل ضعيفة مقارنة برقم 3 إلى 4 مشروعات لكل 100 نسمة في بلدان الاقتصادات البازغة، ومن 4 إلى 4.3 في البلدان المتقدمة. لا يزال خلق الثروة خارج نطاق المحروقات ضعيفاً، لذلك فمن المهم ألا ننسى أن هذه المستويات من الأداء تتحقق في ظروف بيئة أعمال غير مواتية في الجزائر (انظر تقارير DOING BUSINESS في السنوات الأخيرة).

تلك الأرقام ليست مجرد قيم مطلقة، بل هي مؤشرات على ما يمكن أن يحققه ريادة الأعمال إذا ما تحرروا من معوقات البيروقراطية.

ما السبب وراء ضعف بروز رواد الأعمال في الجزائر؟

أسباب كثيرة: سيكولوجية، واجتماعية، واقتصادية. حتى إننا لنشعر كما لو أن ريادة الأعمال هؤلاء الذين لا نكاد نراهم، يقولون لنا: "استرونا". قصص طويلة من عدم الرغبة في ذبوع الأمر، وقف عليها د. عبد اللطيف بن أشنهو في كتابه عن المشروعات الجزائرية (ENTREPRISES ALGÉRIENS)، وفيه يتحدث عن جيلين تربي الجيل الذي آلت له القيادة اليوم على مبادئ المساواة الاشتراكية: النجاح جماعي وليس فردياً، هكذا علمونا صغاراً. هذا التوجه تقابله ثقافة دينية صوفية لطالما كانت لها الهيمنة في بلادنا، توصينا "بألا تعرف يسرانا ما تنفق يميننا".

لقد أدت حملات "الأيدي الطاهرة" وبيئة الشك في ريادي الأعمال الذين تصم ممارساتهم الإدارية مخالفات قانونية، أدت بالكثير من المبادرات الجميلة إلى الفشل.

الشهداء سيعودون هذا الأسبوع. أمين

ولكنني على يقين من أن قوى ريادة الأعمال في الجزائر لا تنتظر سوى أن تحين الفرصة حتى تفصح عن نفسها. لا، لن تقضي روح الريعية على روح ريادة الأعمال، أرى ذلك في قوى الشباب التي لا تنفك تطلق الأنشطة في تكنولوجيا المعلومات، والاتصالات، وفي المحاولات المتكررة التي لا تتوقف في الشتات، وفي روح المجازفة لدى أصحاب المشروعات الصغيرة والمتوسطة، المستمرين في إنتاج وخلق القيمة في الجزائر، برغم مواجهتهم لأكثر القيود عبثية.

ماذا لو ذهبنا مذهب كاتب المسرحية الشهيرة، وحلمنا بأن ريادي الأعمال سيعودون هذا الأسبوع؟

فلنطمح: لو تم تقنين فئة الاقتصاد غير الرسمي. ولو تم إدماج جزائري الشتات، بجدية، في مشروع تنمية اقتصادية حقيقي. ولو أتيحت للشباب، الخلاق على أكثر من مستوى وحامل الهوية التكاملية، فرصة التعبير عن نفسه. ولو تحررت الشركات من كل القيود...

سوف تطلق طاقات ريادة الأعمال المحررة هذه المعجزة المنتظرة بكل تأكيد؛ لأن الجزائر ستمتلك في تلك اللحظة المكونين اللذين تفتقر إليهما الكثير من البلدان الأخرى: المال والسوق.

متى يُنتج كل ذلك "النقطة الحرجة"؟

يصف مالكوم جلاذويل في كتابه الشهير، النقطة الحرجة (TIPPING POINT) تلك اللحظة الحاسمة التي تتحول فيها طاقة ريادة الأعمال إلى قوة، إلى حركة تحدث التغيير. ويشبه جلاذويل عملية تحول تلك الحركة إلى حالة عامة بالوباء، ويحدد له ثلاث خصائص:

أولها أن "يصاب" الناس بتلك السلوكيات ويعيدوا إنتاجها. لقد قال العربي بن مهدي، أحد أبطال الثورة، "ألقوا بالثورة إلى الشارع سيحتضنها الشعب". ولنا في مقولته أمثلة كثيرة نلاحظها في القطاعين الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر. فبمجرد أن يصلوا

إلى "النقطة الحرجة" سيعبرون عن أنفسهم على أفصح ما يكون. وأذكر هنا قطاعات تكنولوجيا المعلومات، وخدمات الويب، والإعلام، والتصنيع الزراعي، والخدمات الداعمة للمحروقات... وفي ميدان المشروعات الاجتماعية: دفع حقوق المرأة، والتعليم، والتنمية الإقليمية، والبيئة...

أما الخصيصة الثانية، فتتمثل في أن تؤدي التغيرات الصغيرة إلى آثار كبيرة. وهنا تكمن، في رأبي، دراما النشاط الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر، ذلك أن غياب تلك الثقافة التراكمية يشل حركة الفاعلين الذين يُحلون مبدأ "فكر عالمياً وتحرك عالمياً" الجزائري الصرف، محل مبدأ "فكر عالمياً وتحرك محلياً" المتعارف عليه على مستوى العالم... لم نر "استراتيجيات" في الجزائر؟ من متطلبات التحرك وجود استراتيجية عالمية، ومن الواضح أن "التحرك عالمياً" يعني "عدم التحرك"! والنتيجة؟ من المهم لدفع روح ريادة الأعمال في الجزائر أن يجري العمل على التعريف بقصص النجاح وآثارها الاجتماعية-الاقتصادية. ولا ننسى هنا أن اثنين من بين كل ثلاثة موظفين يعملون في القطاع الخاص المنتقد دائماً -دون أن نحصي القطاع غير الرسمي- فماذا لو أطلقنا تلك الطاقات؟...

ثالثاً، التغيرات تحدث بشكل مفاجئ ولا تأتي على مهل. فلا جدوى إذن من الانتظار أو التقدم ببطء شديد. من المهم أن يتوفر إيمان الإنجليبين مع جسارة الثوار: هذا ما أردت الوصول إليه. لقد تراكم التأخر عن الركب في الجزائر كثيراً، والتقدم الخطي التتابعي لن نجني منه، بكل تأكيد، إلا تقويت بعض الفرص التي بقيت لنا للحاق بركب التغيرات العميقة التي يشهدها العالم. نحتاج إلى تقدم سريع، في قفزات، وإبداع، واستشراف للمستقبل، وهو أمر لا يستطيعه سوى ريادة الأعمال فقط... رواد أعمال إنجليبون وثوار في آن معاً.

لقد تراكم التأخر عن الركب في الجزائر كثيراً، والتقدم الخطي لن نجني منه إلا تقويت بعض الفرص التي بقيت لنا للحاق بركب التغيرات العميقة التي يشهدها العالم... نحتاج إلى تقدم سريع، في قفزات، وإبداع، واستشراف للمستقبل، وهو أمر لا يستطيعه سوى ريادة الأعمال فقط. رواد أعمال إنجليبون وثوار في آن معاً.

تزايد عدد المشروعات الاقتصادية والاجتماعية في فترة قياسية؛ حيث تنبه ريادة الأعمال، وبسرعة فائقة، إلى الفرص المتاحة، ووعوا ضرورة اجتماعية؛ حيث تنبه ريادة الأعمال، وبسرعة فائقة، إلى الفرص المتاحة، ووعوا ضرورة استبدال سمات الريعي بعناصر النجاح في اقتصاد السوق... لقد شهد الجزائريون الدليل على أن الطاقات المحررة مع انفتاح الاقتصاد، قادرة على تحقيق المعجزات.